واهالي الواحات كسالى على الغالب يكرهون العمل وخصوصاً ما لم يألفوهُ من الصغر وهذا سبب فقرهم . فاذا ردمت بئر قديمة طلبوا من الحكومة ان تحفر لهم بئراً اخرى مع ان تطهير البئر الاولى قد يكون اسهل واقل نفقة من حفر بئر جديدة . ولو اعتني الاهالي بحفظ الآبار القديمة سالمة من الردم وباستخدام الوسائل لرفع المياه (وهي احياناً على عمق قليل جداً تحت سطح الارض) لزادت اراضيهم الزراعية وتحسنت احوالهم كثيراً

وآلات حفر الآبار التي في الواحات بسيطة جداً اشبه بالآلات المستعملة الآن في القطر المصري ويستعملون عوضاً عن الانابيب الحديدية انابيب من خشب السنط متقنة الصنع جداً لا تنفذ المياه جدرانها . ويظهر ان صناعة هذه الانابيب قديمة جداً في الواحات فان الانابيب التي في العيون الرومانية لا تزال في حال صالحة كما لو كانت قد صُنعت حديثاً

وفي الواحات من المعادن الفصفات وهو في الداخلة ولو لا بعد المسافة لامكن نقلهُ بسهولة الى وادي النيل والانتفاع بهِ في تسميد الاراضي . وفيها ايضاً الشب والحمرة والملح وقليل من الكوبلت والنكل ولكن الراجح ان هذه المعادن كلها موجودة بكميات قليلة لا تفي بنفقة استخراجها

وقد بحث جيولوجيو مصلحة المساحة في مصر عن اصل الواحات وكيفية تكونها فذهبوا الى ان طبقات الارض تغير ترتيبها هناك في احد العصور الخالية لسبب طبيعي فانكشف كثير من الطبقات اللينة وتعرّضت للرياح ففتتتها وحملت ترابها وبذلك انخفضت الارض . ولا تزال الرياح في تلك الانحاء تفعل هذا الفعل الى الآن والواحات تزيد اتساعاً

نسيم بربري

منزلة الشعر من التاريخ

﴿ ٣٣ ﴾ الحصون والآطام

كان العرب يستخدمون في البناء الشيد والاجر والقرميد قال النابغة الذبياني

او دمية من مرمر مرفوعة بُنيت بآجرٍ تُشاد وقرمدِ

وقد شادوا الحصون المنيعة والآطام الراسخة كالخورنق والسدير وقصر غمدان واحتفروا الآبار وكلُّ ذلك قد جاء في شعرهم قال السموأل المشهور

بنى لي عاديا حصناً حصيناً وبئراً كلما شئتُ استقيتُ

يشير بقولهِ هذا الى الابلق الفرد الذي دعاهُ لمنعتهِ جبلاً حيث قال

لنا جبل يحتله من نجيرهُ منيع يردُّ الطرفَ وهو كليلُ
رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ الى النجم فرع لا يُنال طويلُ
هو الابلق الفرد الذي شاع ذكرهُ يعزُّ على من رامهُ ويطولُ

وقد ذكر الاعشى ميمون باني هذا الحصن فقال

بناهُ سليمان بن داود حقبة لهُ ازج عالٍ وطيٌّ موثقُ (١)

وظاهر هذا القول يناقض قول السموأل ان الحصن من بناء عاديا (ابيه) والتوفيق بينهما هو ان سليمان بناهُ وعاديا رممهُ فدعا السموأل الترميم بناء لاحتدائه بالكتاب الذي دعا ترميم سليمان تدمر بناء . وقال احيحة بن الجلاح اليثربي

وقد اعددتُ للحدثان حصنًا لو ان المرء ينفعهُ العقولُ
طويلَ الرأس ابيض مشمخرًّا يلوح كأنهُ سيف صقيلُ

وقال هذا الشاعر في خطاب عاصم بن عمرو من بني مازن بن النجار الخزرجي

نبئتُ انك جئتَ تبـ ـري بين داري والعبابهْ
فلقد وجدتَ بجانب الـ ـضحيان شيئًا ذا مهابهْ

والضحيان الحصن الذي بناهُ واشار اليهِ في ما سبق وقد بنى قبل الضحيان حصنًا سماهُ المستظل بدليل قولهِ

بنيتُ بعد مستظلٍّ ضاحيا بنيتهُ بعصبة من ماليا

وتسمية الضحيان ضاحيًا للمناسبة اللفظية . اما الآطام فستدل عليها بقول الاعشى ميمون بن جندل

فلمَّا اتت آطام جوٍّ واهلها انيخت فالقى رحلها بفنائكا

وقال قيس بن الخطيم الاوسي

فلولا ذرى الآطام قد تعلمونهُ وترك القنا شُورًا كتمُ في الكواعبِ

واما الآبار فقد ذكر احتفارها الفحل اخو بني ام الكهف من طيء قال

فان الماء ماء ابي وجدي وبئري ذو حفرتُ وذو طويتُ

وبنو طيء من العرب البدو فدل قولهُ على ان البدو فضلاً عن الحضر كانوا يحفرون الآبار لقلة الماء في ديارهم

﴿ ٣٤ ﴾ البيوت

وكانوا يتخذون البيوت من أدم قال طرفة

(١) الازج بنى طولاً

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا اهل هذاك الطراف الممدَّدِ (٢)

ومن شعر قال مضرس بن ربعي الاسدي

كأنَّ لنا منهُ بيوتًا حصينة مسوحًا اعاليها وساجًا كسورُها (٣)

وقال عمرو بن قعاس المرادي

وبيت ليس من شعر وصوف على ظهر المطية قد بنيتُ

ومن النسيج قال طفيل بن عوف الغنوي

وبيت تهبُّ الريح في حجراتهِ بارض فضاءٍ بابهُ لم يحجَّبِ

سماواتهُ اسمال برد مفوَّف وصهوتهُ من اتحمي معصَبِ (٤)

واطنابهُ ارسان جرد كأنها صدور القنا من بادئٍ ومعقبِ

﴿ ٣٥ ﴾ المدافن

اذا علقت ايدي المنية باحدٍ جعلوا لهُ نعشًا حملوهُ عليهِ الى قبرهِ قال كعب بن زهير

كل ابن انثى وان طالت سلامتهُ يومًا على آلة حدباء محمولُ

وكانوا يشيدون على قبور الموتى ابنية ونستدلُّ على ذلك بقول عدي بن ربيعة المعروف بالمهلهل التغلبي حيث قال

سألتُ الحيَّ اين دفنتموهُ فقالوا لي بسفح الحي دارُ

فسرتُ اليهِ من بلدي حثيثًا وطار النوم وامتنع القرارُ

وحادت ناقتي عن ظل قبر ثوى فيهِ المكارم والفخارُ

وقال لبيد بن ربيعة العامري

وهل هو الاَّ ما ابتنى في حياتهِ اذا قذفوا فوق الضريح الجنادلا

ولا يخالنَّ القارئُ انهم كانوا يقيمون الحجارة رجمة تقذف على القبر قذفًا كما يلوح من قول لبيد . بل انهم كانوا يشيدون المدافن كما تشيَّد في هذا الزمان وقول لبيد من باب تحقير الشيء والتزهيد . ودليلنا على ما ادعيناهُ قول مسكين الدارمي

---

(٢) غبراء الارض و بنو غبراء الفقراء . والطراف البيت من ادم واهل الطراف الممدد الاغنياء

(٣) المسوح جمع مسح وهو الثوب من الشعر او الباس . والساج الطيلسان الاخضر او الاسود . والكسور جمع كسر وهو الثنية السفلى من الحيوان

(٤) برد مفوَّف اي رفيق او فيهِ خطوط بيض على الطول واسمال خلق اي بالٍ فقدم الصفة على الموصوف وجعلها مضافًا ككبير امر

ونابغة الجعدي بالرمل بيتهُ عليهِ صفيح من رخام مرصَّعُ (٥)

وقال البرج بن مسهر الطائي

نطوّف ما نطوّف ثم يأوي ذوو الاموالِ منا والعديمُ
الى حفر اسافلهنَّ جوف واعلاهنَّ صفّاح مقيمُ (٦)

كانوا يطوّفون القبر بالريحان والازاهير ذات الرائحة الذكيّة و يستمطرون عليهِ الغيث قال النابغة الذبياني

سقى الغيثُ قبرًا بين بصرى وجاسم بغيث من الوسمي قطر ووابلُ
ولا زالَ ريحان ومسك وعنبر على منتهاهُ دية ثم هاطلُ
وينبت حوذانًا وعرفًا منوَّرًا سأُتبعهُ من خير ما قالَ قائلُ

وكانوا ايضًا يفحمون قبر العزيز عندهم بالخمر قال حاتم

اماويَّ اما متُّ فاسعي بنطفة من الخمر ريًّا فانضحنَّ بها قبري

وقال نصر بن غالب

امتْ على قبريكما من مدامة فالاّ تذوقاها تروّ ثراكما

وكانوا ايضًا يعقرون على القبور الخيل قال الفرزدق في رثاء بشر بن مروان

غضبتُ ولم املك لبشر بصارم على فرس بين الجنازة والقبرِ

وقال حفص بن احنف الكناني

لا يبعدنَّ ربيعة بن مكدَّم وسقى الغوادي قبرهُ بذنوبِ (٧)
نثرت قلوصي من حجارة حرة بنيت على طلق اليدين وهوبِ
لا تنضري يا ناقُ منهُ فانهُ شرَّاب خمرٍ مسعرٌ لحروبِ
لولا السفار وبعدهُ من مهمهٍ لتركتها تحبو على العرقوبِ (٨)

وقال زياد بن الاعجم يرثي المغيرة بن المهلّب

فاذا مررتَ بقبرهِ فاعقر بهِ كوم الجلاد وكل طرف سابحِ

(٥) الصفيح وجه كل شيء عريض · والمرصع المطلي (٦) الصفاح حجارة عريضة رقيقة
(٧) الذنوب الدلو العظيمة وقيل لا تسمى ذنوبًا حتى يكون فيها ماء
(٨) المهمه المفازة · ونحبو من الحبو وهو ضرب من الدبيب · والعرقوب من الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها · وقوله تحبو على العرقوب كناية عن الذبح لان العرب كانوا يضربون ساق الناقة قبل ذبحها قال ابو طالب

ضروب بنصل السيف سوق سمانها اذا عدموا زادًا فانك عاقرُ

وانضح جوانب قبرهِ بدمائها فلقد يكونُ اخا دم وذبائحِ (٩)

وكانت نساؤهم يخمشن وجوههنَّ ويحلقنَ شعورهنَّ اسفًا على الميت قالت الخنساء

لما استبانت ان صاحبها ثوى حلقت وعلت رأسها بسقابِ (١٠)

وربما علقنَ في رقابهنَّ نعال ازواجهنَّ او انسبائهنَّ قالت الخنساء

هريقي من دموعكِ واستفيقي وصبرًا ان اطقتِ ولن تطيقي

بعاقبة فانَّ الصبر خيرٌ من النعلين والرأس الحليقِ

وكانوا يؤبنون الموتى بتعديد مناقبهم كما جاء عن عبد المطلب انهُ حينما ايقن بدنو الاجل استدعى اليهِ بناتهِ واستنشدهنَّ ما عزمنَ على تأبينهِ بهِ فانشدت كل واحدة مرثاة من جيد الشعر والقصة مشهورة والمراثي مثبتة في ديوان شواعر العرب

ولم يكن تأبين الاموات خاصًّا بالنساء فكان الرجال يقفون على الجنازة فينشدون الشعر رثاء للميت كما روي انهُ لما وُضع وكيع بن ابي مسوّر المقراني على نعشهِ جاء الفرزدق والناس قيام حول الجثة فانشد قصيدة مطلعها

ليبكِ وكيعًا خيل حرب مغيرة تساقي المنايا بالرديني السمرِ

الى ان يقول

فلو انَّ ميتًا لا يموت لعزة على قومهِ مامات صاحب ذا القبرِ

أُصيبت بهِ عمرو وسعد ومالك وضبة عمُّوا بالعظيم من الامرِ

واما مدة الحداد فهي حول قال لبيد العامري

تمنَّى ابنتاي ان يعيش ابوهما وهل انا الَّا من ربيعة او مُضَرْ

فقوما فقولا بالذي تعلمانهِ ولا تخمشا وجهًا ولا تحلقا شَعَرْ

وقولا هو المرء الذي لا صديقهُ اضاع ولا خان الخليلَ ولا غدرْ

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حولًا كاملًا فقد اعتذرْ

امين ظاهر خيرالله

---

(٩) نضح القبر بالدم رشهُ و بلهُ

(١٠) السقاب قطنة كانت المصابة تحمرها بدمها وتضعها على رأسها وتخرج طرفها من قناعها ليعلم انها مصابة

الامير فخر الدين المعني

[المقتطف الامير فخر الدين المعني اشهر من تولّى جبل لبنان والبلاد المجاورة لهُ . وقد وقفنا في الجزء الرابع من المجلد السادس والعشرين عند الكلام على ذهابهِ الى ايطاليا ورجوعهِ منها الى لبنان للاطلاع على شؤونهِ ثم عودتهِ الى ايطاليا . والظاهر انهُ لم يقم فيها طويلاً حتى طلب العودة الى لبنان وهاك ما قالهُ المؤرخ في هذا الصدد]

لما اراد الامير فخر الدين ان يرجع الى بلادهِ سعى فاجتمع بدوك توسكانا فقال لهُ الدوك في فاتحة كلامهِ — ما وراءك من اخبار الشرق

الامير — وردني كتاب من امي تطلب اليَّ بهِ ان ارجع لتراني قبل موتها

الدوك — وهل انت راغب في الذهاب

الامير — انك ابن وتستطيع ان تدرك عواطفي ولا اكتمك اني لا يسرني الاَّ ذهابي اليها

الدوك — اذًا نحن لا نقف في سبيلك

فلما نال الامير هذه الاجازة تهيأ للرجوع وذهب الى ليغورن واستأجر مركبًا وارسل اليهِ عائلتهُ وفيما هو لاحق بهم عارضهُ جلاوزة الميناء وسألوهُ الجواز واذ لم يكن بيدهِ قالوا لهُ ان يستحصلهُ من الدوك فرجع الى فلورنسا واذا بالدوك يمانع في سفرهِ محتجًّا بان اقامتهُ في ايطاليا اكسبتهُ معرفة شؤونها بحيث يكون آلةً ضارَّة لتلك البلاد يستخدمها السلطان اذا شاء غزوها فلما اجتمع الامير بالدوك دارت بينهم المحاورة الآتية

— الى اين انت ذاهب

— الى صيداء

— من يتولّى حكومة لبنان

— ابني

— كم عمرهُ

— خمس وعشرون سنة

— اما تخاف بأسًا من ابنك ونسبائك ومواطنيك

— لم اتركهم في جملة اعدائي

— فان كنت لا تخشاهم نهلاً تخشى السلطان

— اني لا ارغب الاَّ في الطعام والكساء وان ارى امي واهلي فان لم يرحّبوا بي فالجبال

فصيحة اماي فان لم تسعني الجبال فالدنيا رحيبة في وجهي وكيف كان الامر اكون بذهابي قد قمت بالواجب عليَّ من البر بوالدتي . وبعد ان ساد السكوت برهة قال الدوك

— اشور عليك ان تذهب الى القسطنطينة

— لو كنت راغبًا في الذهاب اليها ما اتيت الى هنا

وانما اراد الدوك ان يمتحن الامير بهذه النصيحة ليستوثق منهُ بعدم اعانة العثمانيين عليهِ وبعد مضيّ بضعة ايام اجاز الدوك سفر الامير فرحل وهو لا يكاد يصدق بالنجاة واخذ في السفينة يرميلاً من البارود حتى اذا مانعوهُ بعد سفرهِ يحرقهُ فيهلك بهِ مع عائلتهِ

ومن الغريب ما رواهُ اخبار الاعيان من انهُ بينما كان الامير في نابولي وقد ذهب اليها في صحبة والي مسينا ورد اليهِ كتاب والدتهِ تخبرهُ فيهِ بعزل الحافظ واخلاء سبيلها وانها مرسلة اليهِ كتاب الامان ولذلك فهي تسألهُ الرجوع الى وطنهِ كأن هذا الكتاب الذي أُرسل اليهِ سنة ١٦١٤ قضى في طريقهِ ثلاث سنوات. نعم ان الوفد لم يجدوا الامير عند وصولهم الى ليگورن ولكنهُ احاط علمًا بفحوى الرسالة وسائر احوال بلادهِ حين زارها سنة ١٦١٥ فلا يصح اذًا ان يحسب مؤدي الرسالة سببًا في رجوعهِ وانما الارجح انهُ علم بما نال ابنهُ من الحظوى لدى الدولة العلية فامن جانبها لاسيما بعد اذ انعمت عليهِ بالعفو والامان فسأل الدوك الاجازة بالسفر فتلكأ حينًا باعطاء الجواز ثم انعم بهِ واحسن وداع الامير فبلغ عكاء سنة ١٦١٧ بعد ان غاب عن بلادهِ خمس سنين واياماً على ما رواهُ العلاّمة الدويهي وصاحب اخبار الاعيان بخلاف ما قال قولناي ولامارتين فانهما ذكرا غيابهُ تسع سنوات

فلما وطئت قدماهُ ارض سورية وفد القوم للتياهُ من كل ناحية يحملون الهدايا والتحف ويؤكدون الحب والولاء واغرب ما كان ذلك من الامراء احمد بن يونس الحرفوش واحمد طرباي وحسن بن يوسف باشا سيفا واحمد الشهابي لان هؤلاء كانوا قد ناصبوهُ العداء ايام الشدة فمالوا اليهِ حين رأوهُ عاد الى عزّتهِ فتنامى فعالهم وارتضى من جميعهم وقبل هداياهم الاّ الجوادين اللذين قدمها حسن سيفا قائلاً لهُ انهما لا ينسيانهِ حريق دارهِ في دير القمر . ثم استكتب الامير علي الشهابي رسالة ليوسف باشا سيفا يطالبهُ بها بالاثنين وعشرين الف غرش التي اقترضها جماعتهُ من جماعة الامير في اسلامبول فاجاب الباشا ان هذا القرض لقاء ما ضبطهُ الامير من غلال املاكنا في بيروت وكسروان وانطلياس

وجرى فخر الدين بعد رجوعهِ الى الامارة مجرى الطائعين للدولة الناهضين باوامرها فانهُ لما جاء المحصّل يطلب بقية مالٍ عليهِ ذهب الى عكاء وشدّد على القوم في التحصيل حتى اوفى

المحصل وصرفهُ مكرّماً ومحملاً تقدمةً للصدر الاعظم. والمستفاد من الرواية ايضاً ان عكار كانت في ولاية المعنيين

ومما ذكر العلاّمة الدويهي ان في سنة ١٦١٨ قدم طرابلس عمر باشا لبتنجي فضبط المدينة واما بلدانها فكانت تحت ولاية ابن سيفا ولم يعوضهُ عنها شيئاً . وورد في اخبار الاعيان ان الامير كتب الى عمر باشا والي طرابلس يشكو من اعمال يوسف باشا فاجابهُ اذا شئت ان تحاربهُ فانا اكون مساعداً لك واضمن لك ان لا يكون ذلك مغضباً للدولة

وكلتا الروايتين لا تشفي غليلاً الاّ ان جوانين وڤان كاثر صاحبي تاريخ تركيا يقولان ان القلاقل التي حدثت في السلطنة السنيّة عقيب خلع السلطان عثمان الثاني القت حبل الامور على الغارب ومهدت لعسكر الانكجارية سبل الاعتداء والجور حتى على ولاة الامر فاغتنم بعض الولاة الفرصة السانحة ومرقوا من الطاعة يحسبون السلطنة تعجز بشؤونها عن كبح جماحهم واشهر هؤلاء الخونة اباظه باشا والي ارض روم و يوسف باشا سيفا والي طرابلس وبدأ يوسف باشا بان طرد الانكجارية الذين في المدينة معلناً انهُ انما فعل ذلك انتقاماً للسلطان غير انهُ لم يمضِ عليهِ الزمن الطويل حتى قدم عمر باشا البتنجي والياً على طرابلس

الاّ ان تاريخ هذه الحادثة ليس سنة ١٦١٨ لان مقتل السلطان عثمان كان سنة ١٦٢٢ فهي اذاً ليست بالسبب الفعال للغارة المنوه عنها والله اعلم

فكأن عمر باشا ضبط المدينة ولكنهُ لم يقوَ على كبت يوسف باشا في عكار فاستنهض الامير فخر الدين او رأى ان يمحو سيئاته الماضية تجاه الدولة بان يخدمها في قمع يوسف باشا وهو عدوهُ اللدود فخابر عمر باشا ولما اجاز لهُ محاربة العدو تحفّز لهُ وزحف بمن اجتمع اليهِ من الكماة الى نهر ابرهيم ومنها الى اميون فبخمون حتى قبولا في عكار فارتاع يوسف باشا وفرّ ليلاً الى قلعة الحصن فغنم الامير اثقالهُ ثم التقى بعسكر عمر باشا وتبعا يوسف باشا واضطراهُ الى التسليم

قيل ان شرذمةً من عسكر الامير التقت بجماعة كان فيهم الامير محمد حفيد يوسف باشا وعمرهُ خمس سنوات فلما ابصر الجماعة العسكر المعني خافوا وهربوا تاركين الغلام فحمل الى فخر الدين فبعث يطمئن امهُ عن سلامة ابنها وهي في سير ثم نقلها من هناك الى عكار وقصد الامير عكار فاشتغل عسكرهُ بنهبها اما هو فركب بالف فارس الى الحصن فرأى آل سيفا واحزابهم متأهبين للقتال فحمل عليهم وحاربهم فانهزم الاميران محمد وسليمان صوب جبيل وجاء سائر العسكر فاحاطوا بقلعة الحصن فكتب يوسف باشا يستغيث بمصطفى باشا والي الشام ومحمد باشا والي حلب وكتب الامير فخر الدين الى ابنهِ الامير علي يأمرهُ بالبقاء في غزير وان يبعث عسكرهُ

بامرة الامير علي الشهابي ففعل. وضاق ذرع يوسف باشا فاخرج زوجتهُ ابنة الامير تستغيث به ليكف عن بعلها فطيب قلبها ووعدها باجابة سؤلها واشرط على ذلك ان يؤديهُ يوسف باشا مئتي الف قرش وان يعطيهُ صكًا برفع الضبط عن املاك آل عساف من انطلياس الى بيروت

ومما روى تشرشيل في تاريخ لبنان ان يوسف باشا لم يكن يعرف الامير فخر الدين شخصيًا فلما اصطلحا جاء عكار مسلمًا على الامير ولم يكن ابنهُ صهر فخر الدين حاضرًا بل كانت معهُ كنتهُ بنت الامير فوجدا فخر الدين نائمًا القيلولة وكان صغير الجسم هزيلاً فالتفت يوسف باشا الى كنتهِ قائلاً أليس هذا ابوك قالت بلى قال لو شئت لوضعتهُ في جيبي بيدي مفاتيحي فسمع فخر الدين هذا الحديث وساءهُ الاستهزاء بصغر جسمهِ فنهض للحال غير مبالٍ بيوسف باشا ولا ملتفت الى واجب التحية بل امر بالخيول فسرجت وبالرجال فتهيئوا وهو لا يصغي الى ما قُدِّم من التوسلات والمعاذير لانهُ حسب ذلك المزاح هجوًا فخرج من هنالك متوعدًا

ولما وصلت النجدة بامرة علي الشهابي رجع فخر الدين بشرذمةٍ الى عكار ونقل حجارة قصر آل سيفا الى البحر ومنهُ الى بيروت فحُملت منها الى دير القمر

واختلفت رواية المؤرخين عن نجدة الوزيرين والي الشام ووالي حلب ليوسف باشا فقد قال العلاَّمة الدويهي انهما انجداهُ وجمعا عسكرهما وزحفا حتى حماه وكاتبا الامير فخر الدين وعمر باشا بالكف عن القتال وقال صاحب اخبار الاعيان انهما لم ينجداهُ والذي نرى ان الروايتين صادقتان ولئن تباينتا فان الوزيرين لم ينجداه بادي بدء لانهُ كان ناجمًا على الدولة وانما لا يستبعد انهما لما عملا بالعفو عنهُ تحفزا لنجدتهِ وزحفا الى حماه لكف القتال وليس لمحاربة اللذين كانا يحاربان عن الدولة . يستفاد ذلك مما روى جوانين من انهُ لما تولى الصدارة العظمى قره حسين باشا في عهد السلطان مصطفى اقرَّ يوسف باشا على ولايتهِ

بيد انهُ ورد صريحًا ان يوسف باشا اعيتهُ الحيلة من تشديد الحصار على قلعة الحصن كأنهُ لم يعلم بتقرير الولاية عليهِ فبعث يطلب الصلح من فخر الدين فطلب الامير ثلثمائة الف قرش نصفها عن قرض اسلامبول وثمن الماشية التي ضبطها الباشا مما اودعهُ الامير عندهُ حين سفرهِ ومن حاصلات بيروت وغزير وبلادها مدى ثمانية شهور والنصف الآخر لوالي طرابلس لقاء ما ضبط يوسف باشا من اموال المقاطعات. وهنا ايضًا اختلفت رواية العلاَّمة الدويهي عمَّا نقلناهُ عن اخبار الاعيان فان ذاك يقول ان المال مئة الف وان فخر الدين اخذ صكًا بمئة الف اخرى وفي اخبار الاعيان ان المئة الف اخذها الباشا والامير زيادة عن المال الاول

وبعد ذلك كتب بين الامير ويوسف باشا وثائق الصلح والمسالمة وانهُ لم يبقَ بين النفسين

حقٌّ ولا دعوى ثم رُفع الحصار ورجع كلٌّ الى مقرهِ اما فخر الدين فكانت قلعتا جبيل وكرجبيل قد امتنعتا عليهِ اثناء مسيرهِ على يوسف باشا فتركهما حتى اذا عاد اخذهما وامر بهدم قلعة جبيل

وعاد بعد هذا الظفر وقد رسخت قدمهُ في الامارة ورنت حصاة قدرتهِ حتى دانت لهُ البلاد واصبح حكّامها يرجعون اليهِ في شؤونها لانهُ ظهر بمظهر الطاعة للدولة العلية والعمل على خدمتها والسير على ما تريد متجنباً جهدهُ مناواة الوزراء القائمين على الولايات المجاورة وهؤلاء كانوا يجلون قدرهُ وكانهم قابلوهُ بالالتفات والقبول جزاء طاعتهِ الظاهرة فكان اذا التجأ اليهِ حاكم معزول ونال منهُ الوعد بالمساعدة يسعى لدى غير واحد من الوزراء حتى ينيلهُ ما اراد ولو تكلف على ذلك الاموال الطائلة جرياً على عادة تلك الايام من تقديم الهدايا للحاكم الاعلى استجلاباً لرضاهُ

الاّ انهُ يظهر ان القلوب لم تكن قد صفت او كان ولاة الشام كانوا يشعرون ان ظاهر الامير مموهٌ بالطاعة تمويهاً وانهُ لا يحجم عن شق العصا متى استحسَّ من نفسهِ بالقدرة ولذلك كانوا يوجسون خوفاً من تزايد سؤددهِ ويتمنون لو تمكنوا من خفض شوكتهِ او كان اعداء الامير واهمهم يوسف باشا سيفا واطولهم باعاً في مناصبتهِ كشفوا خفيّات امرهِ لباب الدولة حتى اوعزت الى رئيس اسطولها ان يقبض عليهِ ويجيء بهِ الى العاصمة فتقدم قبطان باشي الى صيداء في خمسين مركباً فرحب الامير بهِ واكرم وفادتهُ وقدم لهُ مالاً وزاداً فطلب القبطان باشي ان يزورهُ الامير في سفينتهِ فاجاب اني ان جئت السفينة وقبضت عليَّ كان ذلك شيناً عليك وان سرحتني صرت ملوماً فارتضى الربان بهذا الجواب ومضى الى سبيلهِ على انا لنعجب لهذا الربان لانهُ ان كان مأموراً بالقبض على الامير فليس من شأنهِ ان يقبل مثل جوابهِ ولديهِ من القوة ما لا يقوى فخر الدين على التخلص من وباله وان كان ذلك من عند نفسهِ لينال بصيد الاسد ارتضاء ولاة الامر فما معنى قول الامير لهُ انك ان سرحتني تبقى ملوماً

وكان عمر باشا الكتمنجي قد ولّى الامير بلاد البترون وجبيل وكسروان التابعات لطرابلس عقيب ظفرها بيوسف باشا فولّى الامير من قبلهِ رجالاً عليها ولكن لما عاد يوسف باشا الى الولاية بعث سنة ١٦١٩ ابن اخيهِ محمداً يطالب الامير بتسليم المقاطعات اليهِ لانها من ولايتهِ فامتعض الامير من يوسف باشا وارسل مديرهُ الى اسلامبول واصحبهُ بمركبين محملين صابوناً وامرهُ ان يبيعهما ويدفع المال المرتب على طرابلس مضاعفاً على ان تقرَّر ولايتها على الامير فذهب المدير وتمَّ الامر اذ انعمت الدولة على الامير بولاية طرابلس وعلى مديرهِ بسنجقية جبلة واللاذقية وامرت ان تهدم قلاع يوسف باشا وتضبط املاكهُ واملاك اصحابهِ ولكن ما قفل مدير الامير راجعاً حتى زاد يوسف باشا في المال فتقرّرت عليهِ طرابلس

وكان يوسف باشا قد ولّى ابن اخيهِ الامير سليمان بلاد صافيتا الّا انهُ كان يكره منهُ تحيزهُ لفخر الدين حتى اذا تأخر عن وفاء المال ارسل عليهِ شرذمةً من رجالهِ ولم يكن الامير سليمان يقوى على ممانعة عمهِ ففرَّ الى جبلة وبعث يستغيث بالامير فخر الدين فنهض هذا الى البترون ولما علم يوسف باشا بذلك امر رجاله بالاستكانة في تل عباس وبعث الامير موسى الكردي يعتذر للامير بان مقاتلة سليمان لم تكن الّا تهديداً لهُ ليدفع المال المتأخر عليهِ وارسل لهُ خلعة الولاية فارسلها فخر الدين الى سليمان فرجع بها الى صافيتا واذ قضى فخر الدين وطرهُ رحل الى بعلبك تخافهُ يونس الحرفوش واخنياً منهُ لكن فخر الدين قصدهُ فاجتمع بهِ وامَّنهُ وارتحل الى شدرا في عكار فجاءهُ الامير سليمان سيفا وشكا لهُ من عمهِ وما زال بهِ حتى اوغر صدرهُ فحصر الامير سكان يوسف باشا في دارهِ بعكار التي كان الباشا قد جدَّد بناءها وظلوا على الحصار شهراً حتى سلموا فهدم الدار وكلَّ ما كان قد تجدَّد من الابنية وابقى الامير سليمان بجماعةٍ من رجالهِ في دار الامير محمد وعاد الى بيروت

وحدث في غضون هذه الوقائع ان اثناسيوس الدباس البطريرك الارثوذكسي الانطاكي استثار الطائفة عليهِ فعزلوهُ وانتدبوا اغناتيوس مطران صيدا بطركاً فسيم في القسطنطينية ودخل دمشق بطركاً سنة ١٦١٩ م فتملص اثناسيوس من ايدي الحكام وفرَّ الى طرابلس فما لبث ان توفي فيها ودفن في كنيسة فلما علم اخوهُ كيرلس مطران حوران اتى طرابلس وبمساعي الحاج سليمان الملكي النصراني مدبر يوسف باشا علم الباشا ان البطريرك اغناتيوس من حزب فخر الدين فهو اذاً من اعدائهِ ولذلك تحزَّب الباشا لكيرلس فبعث رجالاً من اخصائهِ واتوا بمطراني حماة وحمص واسقف الحصن قسراً فأمرهم يوسف باشا ان يسيموا كيرلس بطركاً فساموهُ في اميون . واذ لم يكن ذلك برضا الدماشقة ولا سائر ابناء الطائفة انقسمت الجماعة قسمين احدهما على ولاء البطريرك القانوني الذي كان يعضدهُ فخر الدين والآخر على ولاء كيرلس بطاعة ابن سيفا وادّى هذا الانقسام الى التشيُّع فالخصام فالخسائر الفادحة وما زال الامر كذلك حتى قضى يوسف باشا ففرَّ كيرلس من طرابلس الى حلب ووقعت على اثر ذلك امور جمَّة حتى اضمحلَّت حال ارثوذكس دمشق لكثرة الخسائر والمتاعب فجاءهم كيرلس فلم يعارضوهُ على ان اغناتيوس كان يخشى من دخول دمشق ان يقبض عليهِ ولاتها تحزبهِ لابن معن فارسل كيرلس يلتمس من الامير فخر الدين ان يجمع رؤساء الاساقفة كلهم ليعقدون مجمعاً يحضرهُ هو واغناتيوس ويتركان لاعضاء المجمع حق اختيار البطرك فالذي يختارونهُ يكون بطركاً فاجابهُ الامير الى ما اراد وعيَّن الاجتماع في قرية الراس من بلاد بعلبك فجاء جميع

الاساقفة المدعوين الأكليرلس وانهُ نسم على التماسهِ دافرٌ المجتمعون على بطركية انطاكيوس واغتاظ الامير من كيرلس فحضرهُ مقيدًا وامر بقتلهِ قبل الدخول عليهِ فقتل ونبش انطاكيوس بطركًا مدى ايام فخر الدين وتوفي سنة ١٦٣٥ عملة عليهِ

وكان ملك الامير وادعانهُ قد نبّها غيورًا لدى الباب العالي فانعم عليهِ سند محاربة يوسف باشا بالتكرعلى عملهِ ثم زادت ثقة الدولة باخلاصهِ واقتدارهِ على تنفيذ اوامرها اذ ارسل اليهِ حسين باشا الصدر الاعظم سنة ١٦٣٠ حوالةً على يوسف باشا المال السلطاني بعثها اليهِ مع قبوجي باشي اسمهُ مصطفى اغا فنهض الامير برجالهِ قاصدًا طرابلس وبعث يطالب الباشا بالمال فابى الاداء ولكنهُ خاف البقاء حتى اذا وصل الامير الى برج الحصاص ظاهر طرابلس فرّ الباشا منها تاركًا ابنهُ حسنًا في القلعة والسكان في الابراج وكتب الى الدولة يشكو فعلة الامير وانهُ لم يقصد طرابلس تحصيل المال بل لامتلاك القلعة واسترحم رفع الحوالة عنهُ متعهدًا باداء المال ثم بعث نولديهِ عمر وقاسم ان يجمعا الرجال ويزحفا الى جون عكار اما الامير فلبث في برج الحصاص عشرة ايام يراسل الامير حسن بدفع المال وهو يابى ذلك فعرض عليهِ ان يبيع بالوكالة عن ابيهِ جميع ما اشتراهُ من تركة الامير محمد العسّاف في بيروت والبطياس وحارة غزير واملاكها وان يؤدي الباقي عليهِ خمسًا وخمسين الفًا من مال جبيل والبترون دفعت عنهُ في اسلامبول فابى ولكنهُ اخبر اباهُ فجاز ذلك ووكلهُ بالبيع فعُقد البيع امام القاضي والمفتي والاعيان بخمسين الف غرش وارسل الحجة الى الامير فخر الدين فارسلها الى قاضي عسكر في اسلامبول ولا نعلم سببًا لارسال الحجة الى باب الدولة اذا كان البيع لامير فخر الدين كما صرح بذلك العلّامة الدويهي وكذلك لسنا على يقين من شأن هذا الثمن لانهُ لو حسبهُ من مال الدولة لما ذكر المؤرخون ان بعد استلام صك البيع الخ الامير باستيفاء مال الدولة فالارجح اذًا ان يكون الثمن لقاء المال المطلوب للامير فخر الدين من يوسف باشا وقد ذكر من قبل وبعد استيفاء مطلوبهِ عاد فاخذ مال الدولة فابى الباشا وابنهُ الوفاء ثم وقع بين فرسان الامير وسكان الباشا حفظة الابراج قتال ادى الى مهاجمة المدينة وفتحها عنوة ومحاصرة القلعة ومن فيها من الخامية تحت امرة ابن الباشا وبعث الامير واستحضر مركبين فرنسويين كانا في ميناء صيداء وشحنهما بالرجال وجعلهما في ميناء طرابلس ليمنعا وصول الذخيرة اليها من البحر ووقعت بعد ايام موقعة هائلة بين رجال الامير وسكان الباشا فكانت الدائرة على هؤلاء وكان الامير قد اتخذ دار الامير حسين لهُ منزلاً ورآهُ الامير موسى الكردي حين جاء يطلب الصلح انهُ يجلس في الديوان فاخبر ابن الباشا فرمى الديوان بالمدافع من القلعة

ولم يكن الامير فيهِ فتهدَّم الجدار فقال الامير يريدون ان يهدموا دارهم وانا احق منهم بهدمها فدكها وعقيب ذلك جاءت رسل سليمان باشا والي الشام تسأل الامير كف الحصار عن المدينة وفي ما هم يتذاكرون هجم عسكر الباشا الذي تجمَّع في عكار على البدَّاوي وفيهِ عسكر الامير واشتبكت الحرب فتراكض بعض الفرسان من المدينة لنجدة رفاقهم المعنيين فوجدوا عسكر الباشا منهزمًا امام رفاقهم فلحقوا بهم لكن تلك الهزيمة كانت خديعةً لانهم كانوا كامنين للمعنيين فارتدَّ هؤلاء وكادوا يولون الادبار لو لم يقدم الامير ويريع العدو فيفرُّ هاربًا

وبلغت رسل يوسف باشا الى الاستانة فصدر الامر العالي ان يسير قبجي باشي بخمسة سفن مأمورًا برفع الحصار عن طرابلس وتحصيل المال من الباشا وان يحمل الى الامير فخر الدين خلعةً سنيَّة جزاء طاعتهِ فلما وصل القبجي وبلَّغ الامير الامر السامي اطاع ولبس الخلعة واكرم حاملها بعطيَّةٍ وافرة ولكنهُ حذَّر القبجي باشي من مطل الباشا ونهض بعسكره الى بيروت وارجع رسل والي الشام مكرَّمين

جرجي اني

غرائب الشعوذة

يكثر السائلون من سؤالنا عن بعض الغرائب التي يفعلها المشعوذون ويوهمون الناظرين انهم فعلوها بقوة تفوق القوى الطبيعية ونقضوا بها ما لوف الحوادث كقطعهم رأس انسان ثم الصاقهِ بعنقهِ واظهارهم انسانًا آخر يتكلم وهو راس لا جثة لهُ او راس وصدر لا غير ووضعهم انسانًا في كيس يربط ويختم ويوضع في صندوق يقفل بقفل ثم يخرج من الصندوق وهو مقفل ومن الكيس وهو مربوط ومختوم . او ايقافهم انسانًا على مائدة ثم جعلهِ يختفي بغتةً طرفة عين كانهُ لم يكن موجودًا او وضعهم اياهُ على كرسي وجعلهِ يرتفع في الهواء امام الناظرين

وهم يختارون البنات الحسان المنظر غالبًا ليزيد انعطاف الحضور اليهنَّ واشفاقهم عليهنَّ الاَّ في ما يقتضي مشقة كخروج الانسان من الكيس والصندوق المقفل فانهم يختارون لهُ الرجال في الغالب

من يشاهد هذه الاعمال اول مرة يندهش اشد الاندهاش اذا لم يكن قد عرف تعليلها قبلاً ويقف بين التسليم بقول المشعوذ ان ما يفعلهُ انما هو خفة لا شيء فيهِ من السحر وبين شهادة حواسهِ فان عينهُ ترى الرايس يقطع حقيقة وينفصل عن البدن ثم يلتصق بهِ والمرآة تقف امام المرآة فتختفي والرجل يخرج من كيس مختوم في صندوق مقفل ولم ينضَّ ختام الكيس ولا